

## العراق: تغيير الخيول خلال المعركة يعني الهزيمة!

علاء اللامي\*

ثمة حكمة قديمة ومجربة هي عصارة التجربة الإنسانية في أسوأ اختراعات أنجزته البشرية، أي الحرب، تقول: «لا يجوز تغيير الخيول خلال المعركة». ومن تاريخنا نذكر أن خالد بن الوليد طبق هذه الحكمة حين أخفى قرار الخليفة الفاروق القاضي بعزله من قيادة جيوش الفتح العربي الإسلامي خلال معركة اليرموك، ثم نفذ القرار فور انتهاء المعركة بانتصار جيشه وهزيمة الرومان وسلم القيادة للصحابي القائد أبي عبيدة بن الجراح.

ومن التاريخ الثوري الحديث، طبق الزعيم الشيوعي ماو تسي تونغ هذا المبدأ أكثر من مرة خلال الحروب التي خاضها في حرب تحرير الصين وبناء جمهوريتها الاشتراكية، ولكنه كان قاسياً مع القادة المتخاذلين بعد انتهاء المعارك، وآخر من أخذ بهذه الحكمة وطبقها عملياً خلال اجتياح العدو الإسرائيلي للبنان في ثمانينيات القرن الماضي هو الزعيم الفلسطيني الراحل أبو عمار، ياسر عرفات، حين طلب منه على نطاق واسع تغيير قيادته العسكرية بعد اختراق الجيش الصهيوني لدفاعات المقاومة الفلسطينية خلال اجتياح أب سنة 1982 وبلغ العدو مشارف بيروت، فأعاد عرفات صفوف دفاعات المقاومة الفلسطينية والقوات الوطنية اللبنانية وأبقى على القيادات العسكرية في مواقعها خلال المعركة وصد في بيروت صموداً أسطورياً طوال سبعين يوماً من الحرب الضروس، خسر فيها العدو باعتراف معاهد استراتيجية 3517 عسكرياً بين قتيل وجريح وأسير وأسقطت 6 طائرات مقاتلة وعمودية ودمرت 180 دبابة ومدعة، واعترفت إسرائيل بمقتل 332 عسكرياً من جيشها إضافة إلى آلاف الجرحى.

اليوم، في ذروة المعارك التي يخوضها الجيش العراقي والدولة العراقية ككل، مدعومة بقطاعات مهمة من المجتمع العراقي، تخوض

الكتل السياسية الفاسدة، بما فيها الكتلة المهيمنة على الحكومة، أي كتلة دولة القانون، حرباً سياسية جانبية، موضوعها بقاء أو إقصاء رئيس الحكومة واستبدال شخص آخر به، ترضى به قيادات هذه الكتلة. لسنا في وارد الدفاع عن المالكي وحكومته ولا عن حكم المحاصصة والعملية السياسية الطائفية التي يقودها، والتي أتت إلى هذا الواقع المأسوي (مجازر وتهجير وتقسيم فعلي للبلاد

مخاوف البعض من هزيمة داعش لأنها ستعني انتصاراً للمالكي هي مخاوف مرضية (أ ف ب)



فساد وفوضى... إلخ) وقد كنا - أعني كاتب هذه السطور ومن يشاركه قناعاته ومواقفه السياسية - طوال عمر هذه التجربة الفاشلة ندعو إلى إنهائها كلها علناً، وليس لإنهاء فترة حكم المالكي فقط، ولكن الأمر الذي يقاتل من أجله الساسة من جميع الكتل اليوم خطير جداً وسيؤدي إلى تعميم الحرب الأهلية وتقدم التحالف التكفيري البعثي عسكرياً، إذ إن إقصاء المالكي سيستتبعه بالضرورة إسقاط أو

وحتى إذا لم يحدث ذلك بهذه الصورة، بل بصورة أخف وطأة، فإن القيادة البديلة للمالكي ستنتقل من الصفر وستكون تحت رحمة الابتزازيين من الساسة وأمراء الحرب كلهم ومن جميع الطوائف.

إن الحكمة والحرص على العراق وشعبه يستدعيان اليوم التخلي عن المناكفات والمؤامرات السياسية والتناحر والشخصنة في النظر إلى الوقائع والأشخاص والعناوين والتطورات والخلافات بين الكتل والشخصيات السياسية وتأجيل مسألة تغيير قمة السلطة التنفيذية وفي مقدمتها المؤسسات السياسية والأمنية، وهذا لا يعني السكوت عن الذين سببوا هذه الهزائم المنكرة وهذه الماسي والخسائر، وسيكون من اللازم والواجب فتح ملفات هذه الحرب بعد القضاء على الخطر الوجودي التكفيري البعثي الذي يتهدد العراق وتشعبه كله ومحاسبة كل المسؤولين ومسؤولتهم، وفي مقدمتهم نوري المالكي وكابنيتة الحاكمة. أما مخاوف البعض من هزيمة داعش وحلفائها في هذه الحرب لأنها من وجهة نظرهم ستعني انتصاراً للمالكي، فهي مخاوف مرضية وأنانية ولا تعني سوى الوقوف عملياً في جانب داعش وتأخير هزيمتها أو منعها.

لنتذكر جميعاً أن المالكي وإخوانه الأعداء في العملية السياسية من طينة واحدة، وأنهم جميعاً زائلون، أما العراق فينبغي أن يبقى... وسيبقى بقوة وعزم الشرفاء ممن ينكرون ذواتهم من أجل شعبهم.

\* كاتب عراقي

## مازق، الثقافة أم المثقفين العرب؟

كاظم الموسوي\*

بعد مرور سنوات على اشتعال جسد محمد البوعزيزي في تونس (17/12/2010) وانتشار لهيبه في الحراك الشعبي في عدد من البلدان العربية وخارجها أيضاً، تصح الأسئلة المتولدة عن الثقافة والمثقفين في الوطن العربي، إذ ربما أو يمكن أن تكون مفتاحاً لحل صحيح لما بعد تلك التضحيات، وتوضيح ابعاد الثقافة والمثقفين العرب فيها.

أين تكمن المسألة؟ هل في الثقافة أم المثقف؟ من أين البداية؟ هنا لا بد من قراءة ما آل إليه المشهد الثقافي ودور المثقفين العرب فيه. وهو امر لا تغطيه بالتاكيد مقالات ولا دراسات وحسب وإنما يحتاج إلى ورش/ هيئات/ لجان عمل ثقافية أكاديمية لوضع الإصابع على الجروح الغائرة فيه، لا سيما بعد هبوب نسائم الحرية وانكسار بعض حواجز الخوف في المشهد السياسي العربي، وتأكيد أن الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان ثقافة أساساً. تأثير القراءة البانورامية أسئلة أخرى، وقد نزل في دوامة أو متاهة الأسئلة، ولكن الأمر الرئيس فيها أن المشهد الثقافي في مازق حاد أو أزمة مركبة يعبر عنه/ عنها في حالات متعددة، أبرزها، (طبعاً بعد نقد تأخر الدور المتميز للثقافة والمثقف فيما حصل)، يكمن في انقلاب العديد من المثقفين العرب على أنفسهم وخروجهم عن مسارات ما عرفوا فيه قبل أو أثناء وحتى بعد ما حدث مباشرة ولحين من الزمن. هذا الانحراف ليس في الزوايا بل في العمق من مساحات التحرك الثقافي وارتباطه في الحراك الشعبي. ومن ثم يأتي الجزر في الإنتاج الثقافي الرصين الذي كان يعول عليه في عمليات التنوير والتحويلات المنشودة بعد كل التضحيات والحراك والانفضاض والثورات، من جانب، والإسهال المرضي في تحبير الصفحات الورقية والإلكترونية، ومشاغلة البرامج والأحداث إلى درجة الملل والغثيان في كلام خطير في دلالاته، باهت في ظاهره، من جانب آخر. مما يصل في النهاية أو يراد

منه ربط الثقافة والمثقف على السواء، وتعميم المأزق، إلا أن معطياته تشير إلى المثقف أكثر من الثقافة، إذا اعتبرت الثقافة تصوراً لصيرورة جدلية معبرة عن أجيال وتاريخ. ولهذا يمكن القول بصراحة أن المأزق اليوم عند المثقفين العرب الذين يتقدمون مشهد الثقافة وما يجمع عليه من نقد وأسئلة مشروعة، وما أصبح عليه الوضع الثقافي. بات الأمر واضحاً وبلا شك بأن التغييرات التي حصلت في بعض عالمنا العربي دفعت القوى الاستعمارية والرجعية المتخلفة إلى إعادة تموضعها والانقلاب على الحراك أو ما اصطلح عليه بالثورة المضادة، واحتاجت إلى ادوار المثقفين أولاً في ذلك وهو ما وضع المشهد في مأزقه. إذ أن بعضاً ممن كان في صف الثورة فعلاً استمر من موقعه نفسه مضاداً لها، ما أوهم المواطن والشعب بنصه أو قوله كتعبير عن الحراك والثورة. وهذا الأمر هو الأخطر فيما حصل من مأزق فعلي عند المثقف العربي، الذي تبني المشروع أو سايره أولاً، ومن ثم تخاذل وتنازع داخله واستثمره في ظرفه الجديد عنواناً له ولبرامجه وسياساته التي حاول تمريرها قبل ذلك. بل إن غيره ممن كان أساساً في صف القوى الرجعية لم يستطع حتى اللحاق به والتماهي معه. إن هذا النموذج اخطر مثال في المشهد الثقافي العربي، ويتعسر اقناع الناس به وتحولاته لتوافقها مع المثال السابق له، وهنا مكمن الخطورة والاختيار له. فمن التبشير بالتغيير والثورة إلى العمل على توصيفها بالانقسامات والتشظي لما قبل الدولة والهويات ما قبل المدنية، وتبنيها كمسلمات أو دعوة إليها والبناء عليها لصناعة الحالة المطلوبة والقبول بها منه بالذات وعلى حساب التضحيات والتحويلات، حتى بات ما يتفوه أو يسجل في صفحات التواصل الاجتماعي شتيمة أو مرثية للكفاح الوطني ولتاريخ التحرر الوطني والتضحيات الجسام من أجل الحرية والاستقلال والتنمية وحقوق الإنسان. وهي المصطلحات التي صار الترجم بها عرضة لقتلها وإعدام من يطلبها فعلاً وينتظر لحظتها التاريخية للتغيير والتجديد.

من الصعب تصور أن من يتحدث عن الحرية والاستقلال والديمقراطية وحقوق الإنسان ومعاداة/ أو ضد الاستعمار والظلم والاضطهاد والدكتاتورية والاستبداد والإرهاب والطائفية، ويضرب بها امثلة له وعنه، أن يوظف طاقاته تحت سقف كونكريتي مسلح، وحراسة القواعد العسكرية الاستعمارية وجدران الردح الفوضوي والتضليل الصارخ والغش والخداع وتشويه الوعي الانساني وخلط الأوراق والإنكار للواقع ووقائعه والصمت على الجرائم القريبية منه وقبول ذل سيف الحاكم والتسلط المتوارث حتى تاريخه. هل يمكن تصور حالة كهذه؟ من العلمانية إلى الطائفية، من التقدمية إلى الغيبية، من التمرد إلى التخاذل، من الاستعلاء إلى الأذعان... هذه صور فاقعة

ليس يمكننا إنكار أن أعداء التحرر هم المستفيدون من الفتن المشتعلة في المنطقة

ومعروفة والصمت عليها جريمة بحق الضمير الثقافي والإنساني وهي توضح مدى مأزق مثل هذا المثقف العربي الآن. يصبح الخراب الحاصل مهموماً في التركيز على الهويات الطائفية والأثنية والبناء على تشكيلاتها في نظريات وسيناريوات تؤيدها وتضعها معياراً للتقاسم والتبدل الفكري والثقافي بشكل عام. ونسيان الخطر الفعلي والسبب الرئيس فيما وصلنا إليه، وكان هذا المثقف يتمنطق أو عرف به وسمح له بالدخول إلى الميدان من خلاله. ومهما استخدم الآن من مسميات أخرى لفعاليتها، كمعاهد أو فضائيات أو وسائل اعلام واتصال أخرى، فإنها كلها لم تعد تنطلي على احد.

تاريخ الثقافة والفكر منها خصوصاً رسم مراحل وأجيالاً من الناشطين والمنتجين الذين وسمت الميادين بأسمائهم وارتسمت السجلات بهم. وظلت انتاجاتهم دليلاً لمن جاء بعدهم وللأجيال أيضاً. ولكن التاريخ سجل أيضاً أسماء أخرى عنونهم بوعاظ السلاطين وعبيد البلاط والدواوين والمشيوخ التي خدمت المستعمر والمستبد والطاغية وبان معدنها الرديء. لعل الإمبراطوريات الاعلامية التي تتفرخ الآن وتروج لتلك الأفكار والنظريات وتحسم الامر حولها وتضع شعارات براقه امامها لا صليداً من يتعثّر في سيره أو فكره، تكشف بعضاً من الصورة أو رأس جبل الجليد العائم، كما يقال. اما الواقع فإن المعركة الثقافية واسعة، وإن المديات مفتوحة وإن كان يوماً يصول ويجول فيها لم يعد مقبولاً، أو قادراً هو أو من يقف وراءه، على اختراق بوابات الممانعة وعواصم الثقافة التقدمية والعقلانية وتوظيف مؤسسات المجتمع المدني الفعلية والغد العربي الجديد. فلا يمكن الرضا بان الثقافة العربية عاجزة عن النهضة والعمران. وإنها في مأزق طالما بعض من ينطق لغتها في هذه الحالات. ورغم وضوح القضية ومعرفة اسبابها تظل الثقافة ومستقبلها ودورها وأهميتها لمن ينفع الناس.

مع ان وقائع الحال تقول بأزمة أو مأزق المثقف العربي، الذي بنى نموذج في صور التقلبات والتغيرات البنوية والتجسد في ازياء البهلوان الفكرية واستغلال توفر الوسائل والإمكانات لديه، التي هي من جانب آخر فضح له ولنموذجه المازوم. رغم كل الظروف الصعبة وقلة سالكي طريق الحق العربي إلا أن ما حصل أخيراً في بلدان عربية وعواصمها الثقافية يكشف أن الصدمة والرعب قد استوعبت وأن ضرورة ملحة تدعو وتدفع كل المثقفين والمناضلين في شتى مجالات الثقافة والعمل العام إلى التكاتف وإعلاء ثقافة الشعب والتحرر والتقدم ودعم ارادة الجماهير وخياراتها الوطنية الديمقراطية.

\* كاتب عراقي